غارودي ونقد نظريات الصدام الحضاري

الدكتور عبد الإله حاجي

المغرب

تقديم

لا شك أن غارودي من أشهر المفكرين الغربيين المسلمين الذين قدموا رؤية منصفة وعادلة للحضارة العالمية بصفة عامة والحضارة الإسلامية بصفة خاصة. حيث كرس حياته جلها مدافعا عن الإسلام والقيم الإنسانية. فقد عمل جاهدا على تصفية الصورة النمطية المشوهة للإسلام في الغرب. كما أن مواقفه المبدئية في مناهضة الإمبريالية والصهيونية جعلته من أكثر المفكرين إثارة للجدل في الغرب وفي العالم الإسلامي. فشخصيته المتميزة وأفكاره الفلسفية لاتزال تثير العديد من المواقف عند كثير من المفكرين العرب والغربيين بين مؤيد ومعارض فهناك من عارض فكره وفلسفته وأطروحاته، وعدد التهم الموجهة إليه من تشكيك في إسلامه ومعاداة للسامية وهناك من أيده ودافع عنه معتبرا إياه ذلك الجزء الحي المتبقي من الضمير الأوروبي، والذي خير البشرية بين الدمار والحوار. فما موقف غرودي من نظريات الصدام الحضاري التي نظر بها مفكرون غربيون؟

أولا: أطروحة صدام الحضارات

1: مفهوم أطروحة صدام الحضارات

لقد ظهرت نظرية صدام الحضارات بعد الحرب الباردة، ويعد الأمريكي هنتنغتون مهندسها، حيث نشرها في مقالة له في مجلة ثم صاغها بعد ذلك في كتابه " صدام الحضارات وإعادة تنظيم النظام العالمي" الصادر سنة 1996. وترتكز هذه الأطروحة على أن المصدر الجوهري للتصادم في عالم ما بعد الحرب الباردة سيكون العامل الثقافي. وهذه الصدامات الرئيسية ستحدث بين الدول والمجموعات المنتمية لحضارات مختلفة، إذ سيهيمن صدام الحضارات على

السياسات الكونية. ومن المتوقع أيضا أن تنشب الصدامات وأعمال العنف بين الدول والجماعات ضمن الحضارة الواحدة. ومثل هذه الصدامات تكون أقل حدة وأقل فرصة للانتشار من الصدامات التي تنشب بين الحضارات المختلفة[1]. فالشعوب التي تتشابه ثقافيا تتقارب فيما بينها وتتعاون اقتصاديا وسياسيا، كالمنظمات الدولية التي تعتمد على دول بينها عناصر ثقافية مشتركة مثل الاتحاد الأوروبي.[2]

إذن فالصراع في العالم الجديد لن يكون إديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون ثقافيا. يقول هنتنغتون: "فما يهم الناس ليس هو الإديولوجيا أو المصالح الاقتصادية، بل الإيمان والأسرة والدم والعقيدة. فذلك هو ما يجمع الناس وما يحاربون من أجله ويموتون في سبيله".[3] ومن ثم يرى هنتنغتون أنه ليس منطقيا تصنيف بلدان العالم بعد انتهاء الحرب الباردة على أساس أنظمتها السياسية والاقتصادية وإنما على أساس ثقافتها. إذ تشترك الدول الغربية بملامح ثقافية تميزها عن المجتمعات الإسلامية أو الصينية، وأن المسلمين والصينيين والغربيين ليسوا جزءا من كيان ثقافي أوسع، بل إن كل منهما يشكل حضارة بذاتها. فهنتنغتون يصنف البلدان على أساس ثقافي، فالغرب من جهة لتشابه ثقافة دوله، ومن جهة أخرى المعسكر الشرقي المتمثل في الحضارة الإسلامية والصينية اللتين تشكلان تهديدا للغرب. فهنتنغتون يبدي تخوفه من الحضارتين، حيث الحضارة الصينية تتميز بنموها الاقتصادي المتزايد، والحضارة الإسلامية بنموها السكاني وتعبئتها الاجتماعية، لأن تحالفهما سيهدد الحضارة الغربية المتمثلة في المسيحية واليهودية من جهة والحضارات الإسلامية والكنفوشوسية (الصينية) من جهة أخرى[4].

تمثل الحضارة إذن عند هنتنغتون أهمية كبرى في أطروحته لصدام الحضارات. فهو يرى أن الحضارة هي أعلى تجمع ثقافي، وأن محدداتها هي اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات. ولذلك فهي تمثل حسبه، أوسع مستويات الهوية كالحضارة الأوروبية والحضارة العربية والصينية.[5] إلا أن أكثر هذه المحددات أهمية عادة، هي الدين، لأن الحضارات الكبرى في التاريخ البشري كانت قد ارتبطت في تحديدها بالديانات العالمية العظمى.[6] إذن فالدين من أهم المحددات والعوامل الموضوعية التي تميز الحضارات وتحدد العلاقة بينها وهي محركها الأساس. فالناس المشتركون في العرق واللغة ويختلفون في الدين قد يذبحون بعضهم البعض، كما حدث في لبنان ويوغوسلافيا السابقة. والأديان الكبرى ذات الرسالة مثل الإسلام والمسيحية على نحو خاص تضم مجتمعات من أجناس مختلفة.[7]

إن تاريخ البشرية كله تاريخ حضارات، حيث يقول هنتنغتون:" إن التاريخ الإنساني هو تاريخ الحضارات، ومن المستحيل أن نفكر بالتاريخ الإنساني بأي معنى آخر[8]. فالدول تتكتل وتتحالف على أساس حضاري، والعالم سيكون نظامه مبنيا على هذا الأساس. والدول الأساسية للحضارات هي مصدر النظام داخل الحضارات ومن خلال

التفاوض مع دول أساسية أخرى بين الحضارات. فالتجانس الثقافي يضفي الشرعية على القيادة وعلى الوظيفة المتمثلة في إعطاء الأوامر من الدول الأساسية إلى كل الدول الأعضاء والقوى والمؤسسات الخارجية.[9]

أما حسن حنفي فيقول عن صراع الحضارات:" صراع الحضارات المقصود منه أن الصراع بين المعسكرات والإيديولوجيات والنظم السياسية الاشتراكية والرأسمالية، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الأغنياء والفقراء، المركز والمحيط، الاستعمار الجديد وحركات التحرر الجديدة، قد انتهى لصالح طرف واحد، هو الطرف الأول. فقد كان الطرف الأقوى، وعلى الطرف الثاني أن يعترف بالهزيمة. الصراع الآن لم يعد بين نظم سياسية وقوى اقتصادية بل صراع حضارات، والمتفوق في السياسة والاقتصاد، قد يكون بالضرورة متفوقا في الحضارة، لأنها هي التي جعلته متفوقا، وحتى يتم زعزعة ثقة شعوب الأطراف في ثقافتها ونزعها عن حضارتها".[10]

2: جذور نظرية صدام الحضارات

يعود استخدام مصطلح صدام الحضارات إلى أستاذ هنتنغتون، وهو برنارد لويس Bernard Lewis الذي استخدم لأول مرة مفهوم صدام الحضارات سنة 1964، حيث كتب أن " أزمة الشرق الأوسط لا تنبع من مجرد خصومة بين الدول، بل من صدام بين حضارتين. وقد بدأ ذلك بزحف العرب المسلمين نحو الغرب الكبير، بين الإسلام والمسيحية، بالهجوم المضاد أثناء الحروب الصليبية وفشله، ثم بتقدم الأتراك نحو أوروبا وصراعهم المرير من أجل البقاء فيها ثم تراجعهم. ومنذ قرن ونصف يرزخ الشرق الأوسط تحت هيمنة الغرب السياسية والاقتصادية والثقافية. وقد حاولت أن ترتقي بنزاعات الشرق الأوسط، التي تعتبر عادة خصومات بين الدول إلى مستوى صدام الحضارات"[11].

إذن فنظرية صدام الحضارات ظهر قبل الحرب الباردة، وهو صراع قديم لا يزال قائما بين اليهودية والمسيحية والإسلام. يؤكد على ذلك برنارد لويس قائلا:" إن فكرة صدام الحضارات لم تبرز كما ادعى صمويل هنتنغتون بعد نهاية الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي، وإنما قبل ذلك بكثير. إنه ليس أقل من صدام الحضارات، يمكن أن يكون رد الفعل غير عقلاني، ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخي لخصم قديم لتراثنا اليهودي المسيحي ولحاضرنا الدنيوي.[12]

إن التصادم الحضاري في نظر لويس أوضح ما يكون بين الغرب والإسلام نظرا للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الإنسانية، ونظرا للتنافس التاريخي بين المسيحية والإسلام ولغيرة المسلمين من قوة الغرب، إضافة

إلى الجوار الجغرافي. وهكذا يقول لويس:" إذا اجتمع خطر الهجرة وخطر تصادم الثقافات أصبح من السهل وضع تصور النوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف على الأقل ولا سيما بين الغرب والإسلام.[13]ويقصد لويس بالمركز كتلة رئيسية من الاقتصادات الرأسمالية المسيطرة على العالم، وأما الأطراف فهي مجموعة من الدول الأضعف من النواحي الصناعية والمالية والسياسية[14].

قبل صدور كتاب هنتنغتون " صدام الحضارات"، تكلم المهدي المنجرة عن فكرة صدام الحضارات، معتبرا أن حرب الخليج سنة 1991، هي الحرب الحضارية الأولى بين الغرب والإسلام[15]. وسميت بالحضارية لمشاركة عدة دول داخل الحضارة الغربية ضد دولة واحدة تنتمي للحضارة الإسلامية.

3: نظرة غارودي لأطروحة صدام الحضارات

تصدى غارودي لنظرية هنتنغتون العنصرية لصدام الحضارات بسبب سيطرة النظرة الاستعلائية عليها، بوضعها الحضارة الغربية فوق الحضارات جميعها. فهي تبرر سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على السياسة والاقتصاد العالمين، وتدعو إلى القضاء على الحضارة الإسلامية، حيث يبرز الدور الإسرائيلي في هذا المشروع الامبريالي . يقول غارودي:" إن نظرة هنتنغتون كانت أكثر حذاقة، فهي توضح العقبات أمام تحقيق هذا النظام العالمي الجديد، حيث تضمن كتاب صدام الحضارات لهنتنغتون، الدور الجديد للسياسة الإسرائيلية التي تخص ليس فقط الشرق الأوسط، بل سياسة الهيمنة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية.[16]وهذه الهيمنة، حسب هنتنغتون، لن تتم إلا بالحد من تنمية القوة العسكرية للدول الكونفوشيوسية (الصينية) والإسلامية، وألا تخفض كثيرا القدرات العسكرية الغربية، والاحتفاظ بالتفوق العسكري في الشرق الأوسط وفي جنوب غرب آسيا، واستغلال الخلافات والصراعات بين الدول الكونفوشيوسية والدول الإسلامية، ومساندة الحضارات غير الغربية التي تفضل القيم والمصالح الغربية. أما الغرب، فعليه بالتالي الحفاظ على القوة الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه في علاقاته مع تكتل الحضارات.[17]

يرى غارودي أن نظريات هنتنغتون عن صدام الحضارات تمثل الأساس النظري للتوجه الاستراتيجي الجديد للولايات المتحدة وإسرائيل، حيث حسب هنتنغتون، "سيهيمن صدام الحضارات على السياسة العالمية. خطوط الاختلاف بين الحضارات ستكون خطوط جبهة المستقبل".[18] فمنظر البنتاغون، كما يصفه غارودي، " يجعل من نفسه عراب هذا النداء إلى الموت بدعوته إلى صدام الحضارات. هذا التعارض الأسطوري بين حضارة يهودية مسيحية وتحالف إسلامي كونفشيوسي".[19] فنظرة الصدام هذه ستقود إلى حرب عالمية ثالثة، أو "حرب محضرة" كما يسميها هنتنغتون. وهذه الحرب ستكون مختلفة عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، اللتين كانتا "داخليتين". يقول غارودي:" فإن حربا

ثالثة إن نشبت ستكون من طراز جديد. فلن يكون منشؤها منافسات أوروبية داخلية، وإنما مجابهة حضارات بين "المركز" (الغرب) والمحيط (البلدان المستعمرة سابقا).[20]

إن مشكلة السيطرة الامبريالية، بالنسبة إلى غارودي، مشكلة حقيقية، إلا أنه أسيء طرحها. ويتساءل إن كانت الولايات المتحدة في طموحها للسيطرة على العالم- بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وخلقها الإسلام وحلفاءه المحتملين منافسا بديلا، وبعد تدمير العراق "ليكون عبرة" – قادرة على بسط نظامها النهاب " السوق الحرة" على العالم كله. فوحدانية السوق ستكون صدمة " محضرة"، حيث يجهد هذا النظام لتحطيم كل أولئك الذين احتفظوا بنظام قيم آخر غير القيم التجارية، والذين يدافعون إلى جانب هويتهم، عن معنى الحياة.[21]

يؤكد غارودي أن من بين الدوافع لمشروع هنتنغتون، هو نقطة الضعف الذي تعانيه الامبراطورية الامبريالية والمتمثلة في فقدانها للروح، حيث لا وجود لأي مشروع جماعي يتعلق بمستقبل الإنسان، عدا تنمية إنتاجه بالاعتماد على تفوق الأسلحة. إضافة إلى غياب الثقل والموروث الحضاري للغرب. فالمعسكر الإسلامي- الكنفوشيوسي ورث أقدم حضارات العالم من بلاد ما بين النهرين. وقد اعتبر المؤرخ توينبي المنطقة السورية ومنطقة آسيا الوسطى مركزي الحضارة[22]. ومن ثم، سعت الحضارة الغربية للتصدي للقيمة الحضارية لهذه الشعوب لأنها تشكل خطرا على مشاريعها للسيطرة على العالم.

تهدف أطروحة هنتنغتون، حسب غارودي، إلى عرقلة مشروع طريق الحرير الذي سيكون البوتقة لإعادة بناء الوحدة الإنسانية، ليس فقط بين آسيا وأوروبا ولكن مع العالم كله بدون استثناء. فهو رؤية لمستقبل كوني ذي وجه إنساني، غني بمساهمات كل الحضارات. يصف غارودي مشروع طريق الحرير بأنه "نظام جديد متحد، يعيد بناء الوحدة الإنسانية، تساهم فيه كل الثقافات الروحانية والمادية بدون تبعية ولا هيمنة، لتمثل آلاف السنين من عظمة الإنسان"[23]. فهذا الجسر الكبير الذي ربط الشرق بالغرب مرورا بإفريقيا طوال أربعة عشر قرنا، لم يكن من خلال التبادل التجاري فقط ولكن أيضا من خلال الإثراء المتبادل للثقافات والعلوم والتقنيات والروحانيات. فطريق الحرير، حسب غارودي، هو طريق القرن الواحد والعشرين الذي سيخلق ثورة في كل المجالات. فهذا المشروع ليس حلما ولا خيالا لأن التطبيق بدأ بالفعل. ويعتبر غارودي هذا الطريق جغرافيا سياسية للتحرر في الكون كله وليس للهيمنة، عكس الجغرافيا السياسية للقوة التي يعتمدها الغرب. كما سيعطي هذا الطريق 80 % من شعوب العالم اللانامية، بسبب تبعيتها أو حصارها بالصحارى، الإمكانات لتحقيق نمو إنساني بحت[24].

ومن أجل تحقيق هذا المشروع العملاق، تدعو الصين إلى مشاركة العالم كله. وهذا المشروع سيقوم بتغييرمحور العالم. ولهذا السبب تحتدم قوى الماضي ضده[25]. وجاءت أطروحة هنتنغتون رافضة لهذا المشروع الكوني والإنساني باعتبارها أطروحة تدعو إلى الصدام والصراع بين ثقافات العالم، والتي أفرزت خوفا من الثقافات الشرقية خصوصا الإسلامية.

4: الإسلاموفوبيا حسب غارودي

يعيش المجتمع الغربي أو الوعي الغربي خوفا مرضيا تجاه الثقافة الإسلامية منذ فجر التاريخ، لا سيما منذ أحداث الحادي عشرمن شتنبر 2001، التي تعد لكثير من المحللين والمهتمين بالشأن السياسي، مجرد عمليات مفبركة. فأصبح كل ما يمت للإسلام بصلة هاجسا يؤرق مضجع الغرب، وعدوا جديدا تتجه إليه جميع أنظار العالم الغربي الذي جسد هذا الرهاب من خلال العمل على تفكيك العالم الإسلامي وزعزعة استقراره، فشن إبادة جماعية في كثير من الدول كأفغانستان والعراق وغيرها ... والإبادة الجماعية بمفهومها الشامل "هي جريمة تتكون من عدد من الأفعال التي ترمي إلى تدمير الأركان الأساسية. العناصر والخصائص الثقافية واللغوية والعرقية والدينية والسياسية للجماعات الوطنية بقصد القضاء عليها"[26] .

يرى روجي غارودي أن الغرب يعيش نوعا من مرض العصاب الجماعي المنفر من الإسلام والذي ولد الخوف تجاهه. يقول نعوم تشومسكي: "نحن نعيش في بلد خائف وأسباب هذه الوضعية، بصراحة أجهلها، ومحتمل أنها مرتبطة بالتاريخ البعيد للولايات المتحدة الأمريكية"[27]. وهدف الغرب من هذا العصاب أو الرهاب هو زرع الفوضى والتفرقة تحت شعار حقوق الإنسان الذي يضمر ويروج لنزعات الانفصال والتفرقة الدينية والعرقية حتى لا يسود الإسلام. وهذا ما يعبر عنه أرنولد توينبي، أستاذ هتنغون صاحب نظرية صدام الحضارات، فتوينبي يعبر عن خوفه الشديد من الإسلام ومن احتمال أن يعود ليلعب دوره التاريخي، حيث يقول: "الإسلام يمكن له أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي، إذا تغير الوضع الدولي، وأرجو ألا يتحقق ذلك"[28].

لقد أصبح لا يخفى على أحد الدعوات الغربية الصريحة إلى تقسيم الأقطار العربية والإسلامية خوفا أن يكتسح الإسلام حضارتهم المتهاوية، من خلال مبادئه وثقافته العالمية التي تدعو أساسا إلى التعددية الدينية وحفظ حقوق الإنسان. ومن هذه الدعوات، نذكر على سبيل المثال ما قاله برنارد لويس في إحدى مقابلاته الصحفية: "إنه من الضروري إعادة تقسيم الأقطار العربية والإسلامية إلى وحدات عشائرية وطائفية، ولا داعي لمراعاة خواطرهم أو التأثر بانفعالاتهم وردود الأفعال عندهم، ويجب أن يكون شعار أمريكا في ذلك إما أن نضعهم تحت سيادتنا أو ندعهم ليدمروا حضارتنا"[29] .

يوضح غارودي العقلية الغربية التي تكرس العداء للإسلام، حيث يقول "بعد انهيار الاتحاد السوفياتي كان لا بد من إيجاد بديل يجسد دور الشرير وإمبراطورية الشر، التي يجب محاربتها في القارات الثلاث، فكان الإسلام حتى يكون التهديد العالمي للإرهاب مبررا للاستمرارية وحتى للإسراع من سباق التسلح وفرص التدخل الاقتصادي أو العسكري في كل أركان العالم"[30]. ولتحقيق هذه الأهداف يستغل الغرب سيطرته الواسعة على وسائل الإعلام بشتى أصنافها ويقوم بتوجيه خطاب إعلامي معاد للإسلام. يقول غارودي: "إذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون"[31].

ثانيا: غارودي والاستشراق

رغم الأعمال الأدبية الكثيرة التي اختص بها عدد لا يحصى من الباحثين المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على البحث في الإسلام والثقافة الإسلامية، فذلك لا يمثل مظهرا إيجابيا للشرق، بل كان نقمة وغصة في حلق الجسم الإسلامي. فالانتشار السريع للإسلام لفت أنظار رجال اللاهوت في الغرب للإسلام، فارتأوا أنه بالاستشراق سيصرفون أبناء المسلمين ويصدونهم عنه ويشككونهم في عقيدتهم، ويزيلون مظاهر الحياة الإسلامية، وكذا " خلق الافتراءات على العقيدة والشريعة والمصدر لكي تضعف الروح الإسلامية عند المسلمين وتبث الفرقة بينهم، وتسعى بكل قوة إلى تنصيرهم"[32]. وهذا ما جاء في خطاب للمراجع الأكاديمة المسؤولة في جامعة كمبردج بتاريخ 9 ماي 1636، "نحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد... ولكننا نهدف إلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات"[33]. وهذا ما يؤكده غارودي، حيث يرى أن "الاستشراق لم يكن حركة نزيهة منذ البداية، إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية".[34] فالمستشرقون يدرسون الإسلام ليس حبا فيه، بل لمجابهته ومحاربته. فغارودي يؤكد أن هذا "الإرهاب الناعم" أي الاستشراق " أسهم كذلك في بناء أسس لمشروع الأحكام التعسفية التي جعلها الغرب ذريعة لاستغلال الشعوب الأخرى. لهذا لم تتم دراسة الإسلام في أوروبا من أجل الوقوف على حقيقته، بل اهتم به المستشرقون لأغراض الصراعات الإيديولوجية[35].

يهدف الاستشراق إلى الحيلولة بين الشعوب النصرانية والدخول في الإسلام مركزا على تشويه محاسنه لإقناع النصارى بعدم صلاحيته لهم. كما ارتبط بالاستعمار في البلاد الإسلامية بهدف تمكينه لكي يخضع هذه البلاد لقبول أفكارهم وتمجيد القيم الغربية المادية الرأسمالية النصرانية، وفي المقابل الحط من الإسلام ومن يتمسك به[36].

إذن يتفق الاستشراق مع التنصير والاستعمار ويرتبط بهما، بل ويتعداهما، حيث" لم يقف دوره عند حد مساعدة الهيئات التنصيرية والاستعمار والامبريالية على الهيمنة على أراض واسعة وأجناس متعددة، وإنما ساهم كذلك في بناء أسس لمشروعية الأحكام التعسفية التي جعلها الغرب ذريعة لاستغلال الشعوب الأخرى"[37]. كما سعى لصناعة "شرق" وفقا لأمنيات ولحاجات الهيمنة الغربية[38].

أما عن جذور الاستشراق، فغارودي يرى أنه تأسس" بعد فشل الصليبيين الشامل، حيث تولى إكمال الشوط المبشرون، رواد حركة الاستشراق"[39] الذي نشأ أساسا على تعلم اللغة العربية. فوعيا منها بأهمية هذه اللغة " عملت المجمعات الكنسية على إحداث سلسلة من الكراسي الجامعية لتدريس اللغة العربية، كجامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفنيون .. وغيرها، ولم تكن فعلا منزها عن الغرض بقصد البحث العلمي، بل كان المقصود هو جعل القيام بمشروع تبشيري للدين المسيحي ممكنا[40].

يعطي غارودي أمثلة لرواد حركة "الاستشراق العلمي" الذين أشرفوا على تدريس المستشرقين وتوجيههم، كسلفستر دي ساسي (1757-1838)، الذي يعد الجد الأكبر لهذا الاستشراق في فرنسا وأوروبا كلها، وهو أول أستاذ للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية والتي أصبح مديرا لها، وأستاذا في كوليج دو فرنس Collège de France))، وقد كان يمارس وظيفة موازية أخرى في وزارة الشؤون الخارجية، حيث حرر- كمستشار لسياسة فرنسا الشرقية – نشرات وبيانات جيش نابليون ثم نداء الجيش الفرنسي لاحتلال الجزائر عام 1830. وكان ماكس مولر (1823- 1900) الآمر الناهي في أكسفورد أستاذا للديانات الشرقية، حيث كان يقوم بمحاضرات في تدريب وإعداد الإداريين الاستعماريين للهند.

أما روث بنديكث، الأستاذ في جامعة كولومبيا فقد كتب عام 1946 أشهر مؤلفاته " السيف والأقحوان" نزولا عند رغبة مخابرات الجنرال ماك أرثر وبتمويل منها لتسهيل ضم اليابان إلى مشروعات السياسة الأمريكية"[41].

إن هذا الاستشراق، حسب غارودي، "ساهم على نطاق واسع، في خدمة الغربيين لخلق تسويغ علمي لأحكامهم المسبقة، ولطموحاتهم ومزاعمهم في الهيمنة. وفي النهاية لسيطرتهم بداية في صياغة أسلوب للنظر إلى "الآخرين". ليس بمحاولة التعلم منهم عقيدتهم وثقافتهم اللتين تساعدان على النظر إليهم من الداخل، وإنما على العكس بالحكم عليهم من الخارج انطلاقا من معايير الغربيين الخاصة، كما لو كان مسار الحضارة الغربية، هو النموذج الممكن الوحيد الذي يجب أن يتبع. وفي أحسن حالات هذا الاستشراق، كان "يعرف دون أن يحب."[42]

ثالثا: غارودي وأطروحة نهاية التاريخ

1: مفهوم أطروحة نهاية التاريخ

إن أطروحة نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما، المفكر الأمريكي ذو الأصول اليابانية، تقوم على فكرة أساسية مفادها أن التاريخ البشري ينتهي ويقف عند حدود الدولة الليبرالية الحديثة. ففكرة نهاية التاريخ لا تعني نهاية حقبة وبداية أخرى، بل إن العصور الحديثة لا تستطيع أن تخرج عن الأفق الليبرالي الذي يشكل نهاية التاريخ[43].

إن الليبرالية الحديثة هي نهاية التاريخ أو نهاية الإديولوجيات الإنسانية وهي أفضل وآخر النظم التي يمكن أن يتوصل إليها العقل البشري. وهي تمثل نهاية التطور البشري وذروة الأنظمة ومنتهاها. وبما أن النموذج الليبرالي هو اكتمال الحضارة حسب فوكوياما، فإن باقي الشعوب التي لم تتوصل إلى تطبيقه، هي ملزمة به بحكم حتمية التاريخ. يقول فوكوياما:" إن فكرة التاريخ العام والغائي للبشر الذي يؤدي بنا إلى الديمقراطية الليبرالية الأكثر قبولا لدى الناس"[44]. فالشعوب كلها غايتها هي الديمقراطية الليبرالية، وهي تسير نحو هذه الغاية إلا أن هناك اختلاف في زمن الوصول إليها، فمثلا العربات التي تجرها الخيول بعضها مدرك لوجهته فيصل بأسرع ما يمكن، في حين يظل الفريق الثاني طريقه بسبب هجمات الهنود الحمر التي يتعرض لها، لكنه يحاول الوصول إلى الهدف ويصل بشكل بطيء، أما الفريق الآخر فينسحب من الرحلة لعدم قدرته على تحمل مشاقها، فيتنازل عن فكرة الوصول إلى المدينة.[45]

2: جذور أطروحة نهاية التاريخ

ترجع جذور هذه الأطروحة إلى أفكار فلسفية كتلك التي يتبناها هيغل وماركس. فهيغل يرى أن "تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هي نهاية التاريخ على نحو مطلق"[46] . فهيغل يرى أن آسيا هي بداية التاريخ وأوروبا هي نهايته. كما اعتبر أن مرحلة الشيخوخة هي آخر مراحل العالم، والذي يمثلها العالم الجرماني الذي يكتمل عنده الوعي بالحرية. حيث يقول: "ويظهر العالم الجرماني عند هذه اللحظة من لحظات التطور بوصفه المرحلة الرابعة في تاريخ العالم. وهي تقابل مرحلة الشيخوخة، وإذا كانت الشيخوخة في الطبيعة تعني الضعف والهرم، فإن الشيخوخة تعني نضجها وقوتها الكاملة التي تعود فيها إلى الوحدة مع نفسها"[47]. كما اعتبر هيغل أن أمريكا هي مركز الغرب، وربطها بسيادة العالم، حيث يقول:" أمريكا إذن هي أرض المستقبل. فهاهنا سوف يكتشف في العصور القادمة عنصر هام من عناصر تاريخ العالم".[48]

أما ماركس، فله نظرة مادية، حيث يرى أن المحرك للتاريخ هو الذي يملك وسائل الإنتاج عكس الطبقة العاملة التي لا تمتلك أي قوة سوى العمل، والصراع بين الطبقات هو الذي يحدد مسار التاريخ. " فالتناقض داخل المجتمع هو المحرك الأساسي للتاريخ، أي أن القوى المنتجة فيه في تناقض مع علاقات الإنتاج، فيؤدي ذلك إلى صراع الطبقات، أي صراع بين الطبقات المهيمنة المالكة لوسائل الإنتاج والطبقات المهيمن عليها والتي تملك قوة عملها فقط. فتاريخ المجتمع ما هو في نهاية الأمر إلا تاريخ صراع الطبقات".[49]

3: رؤية غارودي لأطروحة نهاية التاريخ

إن مقولة نهاية التاريخ لفوكوياما ما هو إلا غطاء إيديولوجي لتبرير الرأي الوحيد للامبريالية الأمريكية، فهو يجسد بوضوح شعار "من ليس معنا فهو ضدنا"، الذي رفعه جورج بوش في حربه على ما أسماه الإرهاب. فهذه الأطروحة إقصائية، حيث أغلقت أبواب التاريخ واكتفت بالليبرالية الأمريكية لقيادة العالم سياسيا واقتصاديا وعسكريا. فحسب هذه الأطروحة، لم تعد هناك حاجة إلى طرح اجتهادات إيديولوجية أخرى، والتي قد تؤدي إلى خلافات أو صراعات بين القوى العالمية. ومن ثم، التمهيد لتكريس النظام العالمي الجديد الممجد للمركزية والأحادية والأمركة والهيمنة، خاصة مع غياب طرف آخر في الصراع الإيديولوجي.

ينتقد غارودي بشدة أطروحة فوكوياما، حيث يعتبرها " نموذجا لإيديولوجية تبرير الفوضى العالمية الجديدة."[50] فأطروحة نهاية التاريخ هي نهاية الإنسان وتميزه وتساميه في الهدف ضد الاستسلام لحتميات اقتصادية. وما يميز هذه الأطروحة "وحدانية السوق" أي "الليبرالية الشاملة "، هي الاستخفاف بحرية الإنسان وتشويه مقامه النوعي".[51] كما تمثل النظرة الكلاسكية للرأسمالية الأنجلوساكسونية والتي تعتمد على الرغبة في الإنتاج من أجل الاستهلاك، وهي نظرة مادية تنكرية للمبادئ المحركة للنظام: تنافس الغابة[52]. ولا يقتصر نظام الغاب في العالم الليبرالي على الاقتصاد. فإضافة إلى ذلك، ينتقد غارودي غياب المساواة، ففوكوياما أخفى الأساس الذي هو "حرية الغابة" التي تستبعد المساواة بين الأقوياء والضعفاء، والتي لا تتوقف عن تعميق الفرق عن طريق مبادئها.

يعارض غارودي المرجعية الفكرية لفوكوياما والأسس الفلسفية المؤسسة لنظريته، حيث أخذ عن أفلاطون فكرة الشهوات المادية التي أسماها رغبات العقل، وأخذ من مكيافيللي منظوره السياسي الذي يحرر السياسة من كل القيم السامية، كما أخذ عن هيغل الذي جعل التاريخ يبدأ بكفاح حتى الموت من أجل "المعرفة "، سندا ميتافيزيقيا لسيطرة السيد على العبد. أما عن نيتشه، فرآى فوكوياما في أفكاره إثباتا للأسياد الذين لا يخشون المخاطرة بحياتهم من أجل السيطرة. وهؤلاء الفلاسفة، حسب غارودي، هم أبطال فوكوياما المفضلون، مكللون بالعرابة النبيلة.

يسخر غار ودي من تبني فوكوياما فكرة "الرغبة في القوة". "فهؤلاء الذين نجحوا في الارتفاع فوق الآخرين، كفورد وكارينجي وبوش ويلتسن...فاته أن يذكر أيضا طرزان وجيمس بوند ورامبو"[53]. ويرى أيضا أن فوكوياما من خلال فلسفته هذه، لم يجعل أي مكان للحضارات غير الغربية. ولكي يقيم الدليل على أن نظام الديمقراطية الليبرالية، يمكن أن يحتمل ضعفا مؤقتا، تجنب فوكوياما التذكير بأنه إذا كان للعالم الثالث الذي يمثل أربعة أخماس العالم، مستوى المعيشة نفسه ومعدل الاستهلاك نفسه مثل الغربيين، إذن لنفذت مصادر الثروة في الأرض خلال جيل واحد، وهذا ليس من العالمية في شيء.

إن العالم في فلسفة التاريخ عند فوكوياما هو مثل الأرض قبل جاليليو وكوبرنيك. الغرب هو المحور والباقي كله يدور حوله.[54] وبهذا المعنى، فالتاريخ ينتهي بتحقيق الليبرالية الديمقراطية التي تمكن الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية من تحقيقها. لذا يجب فرضها على العالم، وفي هذا رفض واضح وإقصاء للآخر اللاغربي. ولا مكان إذن لحضارات وثقافات الشعوب غير الغربية ضمن هذا التاريخ. وهي نظرة تريد حشر العالم تحت مظلة واحدة غير مراعية للتعددات الثقافية والإثنية والإيديولوجية. وبهذا فإنه لا يمكن لأية قوة مهيمنة أن تحافظ على قوتها للأبد، فالغرب اليوم يشهد أزمة اقتصادية ومالية خانقة قد تؤدي إلى انهيار قواها مثلما حدث للاتحاد السوفياتي.[55] ففوكوياما إذن، ينحاز للمركزية الغربية التي تنظر إلى الديمقراطية الليبرالية على أنها الطريق الوحيد الذي يجب سلوكه لدخول التاريخ الكوني، معتبرا أن المراحل السابقة على الديمقراطية الليبرالية مراحل ما قبل التاريخ، وبأن وصول المجتمعات البشرية إلى هذه المرحلة من التاريخ الكوني ينتهي التاريخ[56].

رابعا: غارودي والعولمة

إن ظاهرة العولمة تثير جدلا واسعا وتتعدد بشأنها الآراء، واختلف حولها الدارسون في علم الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، وقد ازداد الحديث عن مصطلح العولمة مع زوال المعسكر الاشتراكي وانفراد أمريكا بقيادة العالم كقائد للمعسكر الرأسمالي.[57]

يمر العالم اليوم بمرحلة صعبة، إذ يعيش متغيّرات كثيرة، أنتجت تحدّيات عديدة وصراعات ضارية، وامتدت تلك الصراعات في جميع أنشطة الحياة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأخطرها – بلا شك – التّحدّيات الفكريّة والثّقافيّة، حيث اكتسب مجال العلاقة بين الحضارات زخما كبيرا خاصة مع طرح هنتنغتون الشهير المعروف بصراع الحضارات، فإنه يعتمد في تفسيره على طرح، كتعبيرعن لحظة الصراع الذي يجري وسيستمر في أرض الواقع، لكي تكون هذه المقولة ذات دلالات عامة وشمولية فإنه يحقنها بقوة دلالية مضافة لتصبح أكثر تعبيراً عن جوهرية هذا

الصدام، واتساع شموليته. فمن الصدام الحضاري إلى الصدام الكوني، ومن الصدام الجزئي، بين طرفين أو ثلاثة إلى صدام كلي تشترك فيه مجمل القوى البشرية بمختلف تشكيلاتها. ويقابله جدل آخر ونقاش حول ما يسمى بحوار الحضارات.

لقد خفي عند الحديث عن حوار الحضارات، حقيقة ما تتعرض له معظم ثقافات العالم من انسحاق وتهديد بالتفكك والدمار نتيجة الهيمنة الواسعة للثقافة الأمريكية. ولكنه يوحي ولو شكلياً بتساوي الثقافات وتديتها، وهو بلا شكّ إيحاء غير صادق لا علاقة له بالواقع، بل إنه رد فعل وهمي على الشعور بالسيطرة الثقافية[58]، حيث هناك من يرى أن استحالة قيام حوار حضاري وفق المعطيات الموجودة اليوم في عصر العولمة، تؤدي بنا إلى القول أن الحوار ممكن وخاصة كفكرة أن يسعى للحلول السلمية في عالم القوة والتكتلات الدولية ولكنه من الناحية الفعلية مازال أمام حوار الحضارات، من إشكاليات الحوار كذلك الأخذ بالنموذج الغربي وذلك بتعميم حضارة المعلوماتية واتخاذها أداة للتغيير الذي يفرض من الخارج وتفرض نفسها كحضارة عالمية، ما يؤدي إلى إعاقة عملية التطوير والبناء الذاتي لأنها تعيد تشكيل الواقع الاجتماعي والفكري لدى الشعوب، حيث ارتبطت الثقافة بالهيمنة والسلطة والعنف، وأصبحت تثير ردود أفعال معادية في أكبر مناطق العالم غير العربي. ولعل هذا ما زاد في صعوبة الربط بين الثقافات المهمشة، وجعل الحوار مستحيلا بين الشعوب.

فلن نستطيع الحديث عن حوار ثقافي حضاري مع الآخر إذا لم نتمكن من إنجاز حوار ثقافي مع الداخل، أي داخل كل حضارة بمفردها. فعلاقات الحوار الداخلي التي تنطوي على التعددية وعلى الاعتراف بالآخر، وضرورة التداول السلمي للسلطة، هي التي يجب أن تكون المهيمنة على العلاقات الداخلية قبل الخارجية، وهي وحدها الكفيلة بتكوين ذات كلية أو جماعية، ولو نسبياً، يمكن بالاستناد إليها أن نتحول من الحوار في الداخل إلى قيادة الحوار أو الصراع مع الخارج بشكل ناجح ومثمر. وربما بدا الحوار بين الحضارات بديلاً حقيقياً ولاسيما أنه، فيما يرجى منه، يتجاوز عراقيل العولمة التي يروّج لها النظام العالمي الجديد والتي أجملها إدوارد سعيد بقوله: "إن العولمة ليست في حقيقة الأمر غير نظام امتدت نخبة مالية صغيرة من خلاله بسلطانها ليشمل العالم كله، مضخمة أسعار البضائع والخدمات، ومعيدة توزيع الثروة من القطاعات ذات الدخل الأكثر انخفاضاً في العالم غير الغربي عادة إلى القطاعات ذات الدخل الأكثر ارتفاعا" [59]

إن حوار الحضارات يعني ضمناً إيماناً بالتعددية والتكافؤ من خلال اعترافه ب "الآخر" والسعي إلى محاورته، أي أنه دعوة تؤمن بتعددية الأقطاب، وتنظر إلى النظام الدولي السائد في العالم المعاصر نظرة ارتياب، لأن هذا العالم،

مسود بقطب واحد يسعى إلى تحويل "الآخر" إلى "المثيل" أو بعبارة أكثر صراحة، إلى أمركة العالم متواريا وراء "العولمة"، كما تشير إلى ذلك الناقدة ما بعد الاستعمارية غاياتري شاكرا فورتي سبيفاك عندما تكتب:" العولمة في الواقع كلمة تبرئة لتغطية الأمركة. وإذا ما فُهِمت أمريكا على أنها القوة المهيمنة في ثلاث وكالات عبر قومية رئيسية (صندوق النقد الدولي، والبنك العالمي، وغات التي حلت محلها الآن منظمة التجارة العالمية)، وإذا ما سميتها بالعولمة، فإنها تصبح، ولسبب وجيه، شيئا حسنا. [60]

إن هذا الحوار يتمسك بالغنى الذي ينطوي عليه التنوع الإنساني، وهو محق في ذلك، كما تدلّل على ذلك أشكال المقاومة الضمنية والصريحة التي تواجهها العولمة / الأمركة، حتى في أوروبة الغربية التي ترى فيها تهديداً مباشراً لثقافاتها المتنوعة (فرنسا وهجمة الفيلم الأمريكي، والطعام الأمريكي – الماكدونالد وغيره – مثال صارخ على هذه المقاومة في الغرب، وأمثلة المقاومة في غيره أكثر من أن تحصى). وكذلك فإنه يضيف بعداً إنسانياً مهماً للعلاقات الإنسانية يجعلها محكومة بعوامل أخرى غير اقتصاديات السوق ومتطلبات الاستثمار، أهمها التفكير بالوجود الإنساني بوصفه كلاً متكاملاً من خلال جعل الحوار حواراً بين حضارات تجسّد الإنجازات الإنسانية على مختلف المستويات. [61]

1- العولمة والاقتصاد

إن العولمة بمعناها المضمر هي إلغاء لسبل الحوار الحقيقي والسير بالإنسانية إلى التفكك والدمار. ففي ظل العولمة، فإن كوكبنا، حسب غارودي مهدد بالانتحار. والسبب الرئيس لهذه الإدارة المشؤومة للأرض هو اقتصاد السوق الذي لا يعرف الحدود، والذي لا يهدف إلى إشباع الحاجات، وإنما إلى تحقيق أقصى دمج. وبسبب هذا النظام تتزايد الفجوة بين دول الشمال والجنوب بل وحتى بين المواطنين في البلدان الغنية[62]. ولتبرير هذا الدمج بنظام السوق العالمية الخاضعة للهيمنة الأمريكية، ترسخ إيديولوجية وسائل الإعلام فكرة "الضرورة" وكأن الاقتصاد علم الأشياء، وليس تنظيما إراديا للناس. إنها تحاول مثلا أن توهم أنه ليس من خيار لل"غات" سوى الانطواء القومي المؤمن بحماية السوق من المنافسة الخارجية، وهو انطواء يقود إلى العزلة والاختناق. [63]

يصف غارودي اقتصاد السوق ب" غابة السوق" الذي ينتج نسبا كبيرة من البطالة داخل الدول الغنية، وهو اقتصاد خال من الضوابط، حيث المال هو المحرك والهدف الوحيد، وهذا النظام يولد الفساد والعنف. يقول غارودي:" يولد نظام مملكة المال، الفساد وأيضا العنف؛ يعتبر التفاوت الفظ في مدننا، بين الثراء الفاحش من ناحية، والبطالة والمستقبل الخالي من الأمل لملايين الشباب من ناحية أخرى، منبعا لانفجارات العنف والتخريب. [64] وهذا الوضع،

حسب غارودي، سببه " المؤسسات التي تقوم عليها وحدانية السوق والتي هي حاليا "السلطة المدنية" لسيادة العالم، الولايات المتحدة وتابعيها والمتواطئين معها من 7G والغات وصندوق النقد الدولي"[65].

2- العولمة والسياسة

يربط غارودي العولمة بالسياسة، فالسياسيون لهم التكوين نفسه والدين نفسه: وحدانية السوق، وأن الدولة هي آلة الضغط لكل ما يمكن أن يفسد اللعبة الحرة لاقتصاد السوق. فالسياسة الاقتصادية في ظل العولمة يتفاقم في ظلها عدم المساواة في التبادل وفي المستويات المعيشية وأيضا في الثقافات. وهذا ما يؤدي إلى التفكيك المنظم للثقافات وللحضارات وللبشر. لهذا يدعو غارودي إلى إعادة التفكير بطريقة جذرية لمقاومة هذه الهيمنة الجديدة للسياسة.[66] وهذا ما يؤكه محمد عابد الجابري بقوله: " فإذا كانت السياسة تدبيرا لشؤون الدولة، فإن شؤون الدولة تبتلعها العولمة. إن العولمة تعني أول ما تعني رفع الحواجز والحدود أمام الشركات والمؤسسات والشبكات الدولية، الاقتصادية منها والإعلامية، لتمارس سلطتها بوسائلها الخاصة ولتحل محل الدولة في ميادين المال والاقتصاد والإعلام...إلخ. وهكذا تتقلص شؤون الدولة إلى شأن واحد تقريبا هو القيام بدور الدركي لنظام العولمة نفسه. وإذا تقلصت مهام الدولة انحصر مجال السياسة. فالعولمة تقتضي الخوصصة، أي نزع ملكية الأمة ونقلها للخواص في الداخل والخارج، وهكذا تتحول الدولة إلى جهاز لا يملك. ومن لا يملك لا يراقب ولا يوجه".[67]

بعد أن كانت للممارسة السياسية رحاب أوسع، أصبحت العولمة اليوم تفرض طريقا واحدا وفكرا وحيدا، الليبيرالية ولا شيء غير الليبيرالية التي تعني الخوصصة والعولمة. ويظهر ذلك جليا من خلال تشابه البرامج الانتخابية للأحزاب السياسية على اختلاف توجهاتها، والتي تصل إلى حد التطابق. والأمر يتعلق سواء بالدول الغربية أو بدول العالم الثالث.[68] وهذا ما يؤكده غارودي الذي يعتبر أن العولمة تسيطر على الدول الوطنية وتخضع قوانينها لحركتها وحريتها في العمل، كما يؤدي إلى حرمان الدول من حق السيادة المطلقة وصولا إلى مفهوم جديد للسيادة يركز على العالم أجمع بصفة الوحدة السياسية التي تحل محل الدول التقليدية المعتادة، حيث يقول:" إن التيار المهيمن في صفوف الاقتصاديين الرسميين والسياسيين، هو الدفاع عن الليبرالية بدون حدود، و الداعي إلى اختفاء الدولة أمام السلطة المطلقة للسوق وحتى لا يبقى أي عائق أمام الاحتلال الاقتصادي".[69]

إن الليبرالية الديمقراطية، حسب غارودي، لها دور كبير في تغييب الدولة باسم العولمة، هذه الديمقراطية اجتاحت أغلب شعوب ومجتمعات المعمورة، وهي ديمقراطية شكلية وزائفة، لأن من يمارس السلطة فعليا ليس هو الشعب، وإن كانت هذه الديمقراطية الليبرالية تعطي شكليا ونظريا للشخص حق الممارسة، إلا أنه عمليا يبقى عاجزا طالما لا

يملك الإمكانات والأدوات لممارسة هذا الحق. " فكل ديمقراطية قائمة على الدفاع عن فرد مجرد دون أن تأخذ في حسبانها قدرته الحقيقية، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى انتخاب أغلبية إحصائية، ويسعى كل واحد فيها لمصالحه الخاصة، وتدفع الآخرين إلى السوق (سوق العمل وسوق التجارة)".[70] يقول غارودي: "تصبح الديمقراطية أكثر وهما عندما لا يسمح لها بالدخول في المؤسسات والمنشآت الاقتصادية ولا في الثقافة. في الديمقراطيات المسماة ليبرالية، لا تسمح هيمنة رأس المال بأي مشاركة ديمقراطية حقيقية، فأصبحت الديمقراطية الليبرالية عنوان اقتصاد السوق الذي هو محتواها الحقيقي".[71]

لم يكف الغرب عن الاستخدام الكاذب للديمقراطية، فالولايات المتحدة الأمريكية تميز ديمقراطيتها الإثنية بين البيض والسود، حيث آلاف العبيد ليس لهم أي حق. فالحكم نخبوي عبودي، فالديمقراطية للملاك وليس للشعب[72]، و"المالك فقط هو المواطن"[73]. ففي فرنسا مثلا، كان التصويت عن طريق نظام اقتراع قائم على الملكية.[74] فالديمقراطية في الغرب يصنعها ويستفيد منها أصحاب المال الذين يملكون الإمكانات المادية ويخضعونها لمصالحهم الخاصة قبل مصالح الشعوب ويتقاسمون الغنائم، بل ويدعمون ويساعدون الديكتاتوريات للحفاظ على هذه المصالح. ومن ثم، فالديمقراطية الليبرالية ليست عائقا وعقبة أمام الديكتاتوريات، بل تؤدي إليها. فهذا النظام السياسي هو نتاج الملاك ورؤوس الأموال، حيث يمارس الأغنياء ورأس المال سلطتهم. وزعم هذا النظام الدفاع عن حرية الفرد هو زعم كاذب، لأنها تدافع عن الفرد الغني ذي الإمكانات والامتيازات المادية ولو على حساب مصالح الآخرين وحقوقهم.

3- العولمة وثقافة اللامعنى

يرى غارودي أن العولمة تهدف لبسط هيمنتها على شعوب العالم وثقافاتها، إذ لم تقتصر سيطرتها على السياسة والاقتصاد، بل سعت إلى تفكيك وإلغاء ثقافة الآخر ورفض أي تنوع ثقافي. وهذا ما يؤكده غارودي بقوله:" نطلق كلمة عولمة لا على حركة تؤدي إلى وحدة متآلفة الأنغام للعالم، عن طريق اشتراك كل الثقافات، ولكن بالعكس على انقسام يتنامى بين الشمال والجنوب نابع من وحدة امبريالية وطبقية. انقسام يدمر تنوع هذه الحضارات ومنتجاتها لفرض لا ثقافة الراغبين في التحكم في الكوكب".[75] ولترسيخ ثقافة اللامعنى هذه، يعمد الغرب إلى "معالجة العقول وتمهيدها بوسائل الإعلام ولا سيما التلفزيون"[76] لتحقيق الأهداف المطلوبة. يؤكد غارودي ذلك بقوله:" أصبح الإعلام سوقا ضخمة أكثر اتساعا أيضا من سوق الصناعة والمال. وأصبحت الحقيقة سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقا للهدف المطلوب".[77]

يذكر غارودي بعضا من الأهداف التي يتوخى الغرب تحقيقها عبر وسائل الإعلام بقوله:" السياسة الكبرى، هي كيفية إعداد شعب إعدادا جيدا للعبودية عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم في سعادة وغفلة. وإذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون".[78] فهذه الوسائل تصنع مستهلكا، في كل مناطق العالم، يقبل- بمقتضى قانون السوق- على السلع الاستهلاكية التي تمثل مختلف أذواق الثقافة الغربية، ويصبح المستمع والمشاهد لهذه الوسائل مجرد زبناء مستهلكين. فكرست بذلك العولمة ثقافة اللامعنى. لهذا يرفض غارودي العولمة وينتقدها بشدة. إذ يدعو إلى مقاومتها بفضح الأضاليل والذرائع الإيديولوجية التي تمتد خلفها الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم، وجبت المقاطعة الاقتصادية للصادرات التي ترمز بوضوح للثقافة الأمريكية. فأسلوب المقاطعة، حسب غارودي، يغير جذريا أسلوب العمل السياسي، لأنه لا يتضمن تحزبا أو تفويضا بالسلطة، بل على العكس، هو يتضمن مسؤولية والتزاما شخصيين، تترتب عليهما، في بعض الأحيان، تضحيات. التضحية بأشيائنا المفضلة المعتادة، تضحيات تقود إلى تغيرات في نمط حياتنا الذي اصطبغ بالصبغة الأمريكية الواضحة.[79]

خاتمة:

إن البحث في فكر غارودي وفلسفته يكتسي أهمية بالغة، باعتباره يبحث في سبل تغيير الحضارة الغربية التي تشرف على الانحلال، وذلك من خلال نقده وتقويمه لمسارها منذ بداية تكوينها إلى غاية واقعها الحالي ودعوته إلى ضرورة النظر في الأسس والنظريات التي قامت عليها ومراجعتها من أجل إنقاذ الإنسان من الخطر الذي يحدق به. فتحقيق إنسانية الإنسان هو الهدف الذي يسعى إليه من خلال فكره ونظرته الفلسفية. فحياة غارودي تميزت بمؤشرات ومعالم دالة على النزعة الإنسانية في فكره. فرغم تحوله من المسيحية إلى الماركسية ثم أخيرا إلى الإسلام، إلا أن الثابت في تحولاته كلها هو مشروعه الإنساني، حيث جعل قضيته الأساسية في الفكر والحياة هي قضية الإنسان. ولإنقاذ الإنسان، خصوصا الغربي، انكب غارودي على كشف طبيعة الحضارة الغربية المتمركزة حول ذاتها وتقديم حلول من خلال مشروعه الحضاري البديل الذي اعتبر مشروعا عالميا يهم الإنسانية جمعاء على اختلاف الأعراق والأجناس.

لتجنب الصراع بين الأمم، يرى غارودي أن الإسلام يملك المقومات ليكون دين المستقبل، لأنه عقيدة ونظام حياة، دين توازنات يحقق إنسانية الإنسان ويسهم في اكتمال حياته. فهو توحيد بين المادة والروح والتحام بين الفرد والجماعة وانصهار وتسام داخل الأمة.

كما أن مشروعه لحوار الحضارات، يعد إطارا فكريا وفلسفيا لمواجهة ما يعرف بنظرية صدام الحضارات التي جاء بها هنتنغتون. وعليه، فإن مشروعه الفلسفي هو مشروع حضاري أخلاقي إنساني. وهنا تكمن ميزة وخصوصية فلسفته التي تميز بها عن غيره من المفكرين الغربيين.

الهوامش:

[1] قيس ناصر راهي، صدام الحضارات دراسة نقدية في جينالوجيا المفهوم، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ط1 2017 ص: 45.

[2] صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب مراجعة صلاح قنصوة، ط 2 1999، ص: 47.

[3] المرجع نفسه، ص: 10.

[4] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط 1 1997 ص:99

[5] المرجع نفسه، ص: 100.

[6] قيس ناصر راهي، صدام الحضارات، ص: 46.

[7] صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي مرجع سابق ص: 70.

[8] المرجع نفسه، ص: 67.

[9] قيس ناصر راهي، صدام الحضارات، ص: 4748.

[10] حسن حنفي، صراع الحضارات أم حوار الثقافات مجلة الفكر العربي المعاصر مركز الإنماء القوميعدد 114115 عام 2000ص: 35.

[11] محمد العربي بن عزوز، زمن هنتنغتونصدام الحضارات ونهاية التاريخ دار النهضة العربيبيروتط12009ص:15

[12] المرجع نفسه، ص: 16.

[13] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص: 90.

[14] المرجع نفسه، ص: 88.

[15] محمد العربي بن عزوز، زمن هنتنغتون صدام الحضارات ونهاية التاريخ، ص: 25.

[16] روجي غارودي، محاكمة الصهيونية، ترجمة عادل المعلم، دار الشروق ط 2 1999 ص: 171.

[17] المرجع نفسه، ص: 174.

[18] روجي غارودي، محاكمة الصهيونية، ص: 173.

[19] روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل ترجمة منى طلبة وأنور مغيث، دار الشروق، ط3، 2002، ص: 37.

[20] روجي غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، ترجمة صباح الجهيم وميشيل خوري، الطبعة 2، دار عطية للنشر 1999 ص: 910.

[21] المرجع نفسه، ص: 10.

[22] المرجع نفسه، ص: 1314.

[23] روجي غارودي، كيف صنعنا القرن العشرين، ترجمة ليلى حافظ، دار الشروق القاهرة، ط: 2، 2001، ص: 178.

[24] المرجع نفسه، ص :181.

[25] المرجع نفسه، ص: 186.

[26] عبد الواحد عثمان إسماعيل، الجرائم ضد الإنسانية ـ دراسة تأصيلية مقارنة تطبيقية، جامعة نايف للعلوم الأمنية ـ المملكة العربية السعودية 2007، ص: 24.

[27] N. Chomsky: La doctrine des bonnes intentions. Fayard France 2005, p: 35.

[28] رضوان جودت زيادة، صدى الحداثة ما بعد الحداثة في زمنها القادم ـ المركز الثقافي العربي ـ المغرب ـ 2003، ص: 118.

[29] عبد الحكيم منصور، حكومة العالم الخفية، الماسونية والثورات الشعبية بين الحقيقة والافتراء ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة 2012، ص: 242.

[30] روجي غارودي، محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، ترجمة عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة، ط: 3 /2002، ص: 173.

[31] روجي غارودي، حفارو القبور ـ ترجمة عزة صبحي، دار الشروق القاهرة، ط: 1 /1999، ص: 79.

[32] عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكانط 1 2001 ص: 32.

[33] محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، القاهرةط 2 1989 ص: 38.

[34] محمد عثمان الخشت، روجي غارودي، لماذا أسلمت؟ مكتبة القرآن، القاهرة، 1986، ص: 83.

[35] المرجع نفسه ص: 83 84.

[36] عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، ص: 32.

[37] محمد عثمان الخشت، روجي غارودي لماذا أسلمت؟ ص: 83.

[38] روجي غارودي، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، 1985 ص: 188.

[39] روجي غارودي، وعود الإسلام، ص: 188.

[40] المرجع نفسه، ص: 188.

[41] المرجع نفسه، ص :188189.

[42] المرجع نفسه، ص: 189.

[43] محمد سبيلا، زمن العولمة فيما وراء دوائر الوهم دار توبقال للنشر – المغرب ط1 2006 ص: 66.

[44] فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة1993 ص: 19

[45] فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر ص: 194.

[46] هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ ترجمة عبد الفتاح إمام دار التنوير – بيروت لبنانط2 1986 الجزء الثانيص: 188.

[47] هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ص: 194.

[48] المرجع نفسه، ص: 165.

[49] فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ – مركز النشر الجامعي – تونس – 2000 ص: 112.

[50] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 86.

[51] روجي غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، ص: 22.

[52] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 86.

[53] المرجع نفسه، ص: 86 87.

[54] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 87.

[55] محمد بكاي، مقولة نهاية التاريخ عند فرانسيس فوكوياما ضمن كتال جماعي جدل البداية والنهاية والعود الدائمابن نديم للنشر والتوزيع وهران –الجزائر ط1 2012 ص: 495.

[56] المرجع نفسه، ص: 499.

[57] أيمن أبو الخير، أثر العولمة على السياسات الاقتصادية في فلسطين، مجلة دنيا الوطن، دجنبر 2014.

[58] مريم شوقي، الحضارة بين الحوار والصراع في عصر العولمة، المركز الديمقراطي العربي ن مجلة العلوم السياسية والقانونية، العدد 3، يونيو 2017، ص 16.

[59] المرجع نفسه، ص: 17.

[60] عبد النبي اصطيف، من الاستشراق التقليدي إلى العولمة، مجلة المعرفة، العدد 446، نونبر 2000، ص: 118.

[61] عبد النبي اصطيف، المرجع نفسه، ص: 119.

[62] روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل، ص 25:

[63] روجي غارودي، نحوحرب دينية، ص: 74.

[64] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 59.

[65] روجي غارودي، نحوحرب دينية، ص: 74.

[66] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 114116.

[67] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص: 151.

[68] أنظر: المرجع نفسه، ص: 151152.

[69] سيار الجميل، العولمة والمستقبل، استراتيجية تفكير الأهلية للنشر عمان الأردن، ص: 32.

[70] روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل، ص: 125.

[71] روجي غارودي، حفارو القبور، ص132 :

[72] روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل، ص: 127128.

[73] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 132.

[74] المرجع نفسه، ص: 131.

[75] روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل، ص: 20.

[76] روجي غارودي، نحو حرب دينية، ترجمة صياح الجهيم، دار عطية للنشر، ط2، بيروت، 1996، ص: 75.

[77] روجي غارودي، حفارو القبور، ص: 78.

[78] المرجع نفسه، ص: 79.

[79] روجي غارودي، نحو حرب دينية، ص: 79.